جوانب من حياة علي أبو المكارم[1]

بقلم: رئيس التحرير

د. تركي بن سهو العتيبي

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده أما بعد:

فتعود معرفتي بأبي أمجد الأستاذ الدكتور علي أبو المكارم ـ رحمه الله تعالى ـ إلى ما يزيد على أربعة وثلاثين عاماً، وذلك في تعاقده الثاني في السعودية، وكان ذلك مع قسم اللغويات بكلية اللغة العربية بجامعة أم القرى.

كان الدكتور علي أبو المكارم في ذلك الوقت متقداً حيوية وشباباً، صادقاً جريء الطرح، ناقداً بصيراً، وكانت له صولاته وجولاته في مناقشة كثير من القضايا والمسائل العلمية والفكرية، وتجلى هذا في مناقشة الرسائل المقدمة لنيل الدرجات العلمية، وظهرت قوة شخصيته في مواقف مشرفة تتعلق بالنزاهة والصدق.

حياته الشخصية:

هو علي بن محمد أبو المكارم عيسى.

ولد يوم الأحد ١٧/ ١١/ ١٣٥٤هـ الموافق ٩/ ٢/ ١٩٣٦م ووالده هو الشيخ العالم الفاضل محمد أبو المكارم عيسى شيخ أزهري حصل على الشهادة العالمية العالية التي تعادل الدكتوراه في تخصص الدعوة.

تزوج د. علي أبو المكارم من الأستاذة صباح بنت محمد أحمد بكر؛ الحاصلة على الشهادة الجامعية من كلية دار العلوم[2].

---

(١) عضو الهيئة الاستشارية لمجلة الدراسات اللغوية.

(٢) وكان زواجه منها بتاريخ ١٣/ ٣/ ١٣٨٤هـ الموافق ٢٣/ ٧/ ١٩٦٤م، وأنجب منها ثلاث بنات وابن، وكانت ـ رحمها الله تعالى ـ كثيرة العبادة كثيرة الصيام، مرضت في سنواتها الأخيرة، وتوفيت في القاهرة يوم السبت ١٣/ ٢/ ١٤٣٦هـ الموافق ٦/ ١٢/ ٢٠١٤م، ودفنت في مقابر الأسرة في القليوبية.

وأولاده منها هم على الترتيب الآتي :

١- د. عبير حاصلة على البكالوريوس في الطب من جامعة عين شمس، ولها عشرة أولاد.

٢- د. أمل حاصلة على البكالوريوس في الصيدلة من كلية الصيدلة؛ جامعة القاهرة، ولها ثلاثة أولاد.

٣- أمجد، وبه يكنى، وهو حاصل على البكالوريوس تخصص التجارة؛ جامعة القاهرة، وله خمسة أولاد.

٤- د. نهى، وهي حاصلة على الدكتوراه من كلية الطب، ولها ثلاثة أولاد.

وإجمالي أحفاد د. علي - رحمه الله تعالى - وأسباطه ٢١.

حياته العلمية والعملية:

درس د. علي - رحمه الله تعالى - في كلية دار العلوم، ومنها حصل على الشهادة الجامعية عام ١٣٨١هـ-١٩٦١م.

وحصل على الماجستير عام ١٣٨٤هـ-١٩٦٤م بتقدير ممتاز في النحو والصرف من قسم النحو والصرف في الكلية نفسها، وكان عنوان رسالته: الحذف والتقدير في النحو العربي.

وحصل على الدكتوراه عام ١٣٨٧هـ- ١٩٦٧م من الكلية نفسها والقسم نفسه، وكان عنوان رسالته: "مناهج البحث عند النحاة العرب".

عين معيداً - رحمه الله تعالى - في الكلية نفسها بعد تخرجه من الجامعة مباشرة، ثم عين مدرساً للنحو والصرف بعد حصوله على الدكتوراه، ثم أستاذاً مساعداً عام١٤٠٠هـ- ١٩٨٠م، وترقى إلى درجة أستاذ عام ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م.

تدرج في المناصب الإدارية في كلية دار العلوم بالقاهرة رئيساً لقسم النحو والصرف والعروض، ثم وكيلاً للكلية، وعميداً لها سنة ١٤٠٩هـ- ١٩٨٩، قبل

خروجه إلى التقاعد.

سافر إلى عدد من الدول العربية للعمل في جامعاتها، وكانت رحلاته على النحو الآتي:

الرحلة الأولى: كانت إلى ليبيا عام ١٣٨٨هـ-١٩٦٨م، وبقي فيها ست سنوات.

الرحلة الثانية: كانت إلى جدة، معاراً إلى جامعة الملك عبدالعزيز عام ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م، لمدة عام واحد.

الرحلة الثالثة: أيضاً كانت إلى مكة المكرمة للعمل في جامعة أم القرى عام ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م وبقي فيها خمس سنوات.

الرحلة الرابعة: كانت إلى الرياض معاراً إلى جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية عام ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م، وكانت مدة الإعارة أربع سنوات.

بعد هذا سافر عدة سفرات قصيرة إلى الإمارات للإشراف على وضع خطط الدراسات العليا فيها.

مؤلفاته:

د. علي أبو المكارم له مؤلفاته النحوية المعروفة، والتي وردت مفصلة في سيرته الذاتية المقدمة للترشيح لجائزة الملك فيصل العالمية، ويعرفها طلاب العلم وأساتذتهم. ومؤلفاته هي:

* المؤلفات العلمية:

١. الظواهر اللغوية في التراث النحوي.

كتاب يقع في (٣٦٣) صفحة، نشرت طبعته الأولى سنة ١٩٦٨م.

٢. القواعد الصرفية: عرض ودراسة.

كتاب يقع في (١٩٤) صفحة،نشرت طبعته الأولى سنة ١٩٧٠م.

٣ . تاريخ النحو العربي حتى أواخر القرن الثانى الهجرى .

كتاب يقع في (١٥١) صفحة، نشرت طبعته الأولى سنة ١٩٧١م .

٤ . أصول التفكير النحوي .

كتاب يقع في (٤٣٩) صفحة، نشرت طبعته الأولى سنة ١٩٧٢م .

٥ . تقويم الفكر النحوي .

كتاب يقع في (٢٩١) صفحة، نشرت طبعته الأولى سنة ١٩٧٤م .

٦ . إعراب الأفعال .

كتاب يقع في (٢٢٤) صفحة، نشرت طبعته الأولى سنة ١٩٧٧م .

٧ . الجملة الفعلية .

كتاب يقع في (٣٦٨) صفحة، نشرت طبعته الأولى سنة ١٩٧٩م .

٨ . المدخل إلى دراسة النحو العربي : الجزء الأول (ما قبل الجملة) .

كتاب يقع في (٤٣٠) صفحة، نشرت طبعته الأولى سنة ١٩٨٠م .

٩ . المدخل إلى دراسة النحو العربي : الجزء الثانى (الجملة العربية) .

كتاب يقع في (٧٧٠) صفحة، نشرت طبعته الأولى سنة ١٩٨٢م .

١٠ . تصريف الأسماء .

كتاب يقع في (١٦٧) صفحة، نشرت طبعته الأولى سنة ١٩٨٤م .

١١ . مسائل نحوية .

كتاب يقع في (٢٧٥) صفحة، نشرت طبعته الأولى سنة ١٩٨٦م .

١٢ . قضايا ونصوص نحوية .

كتاب يقع في (٣١٠) صفحة، نشرت طبعته الأولى سنة ١٩٨٨م .

١٣ . الجملة الاسمية .

كتاب في (٣٢٠) صفحة، نشرت طبعته الأولى سنة ١٩٩٦م .

١٤. التراكيب الإسنادية في العربية (الجمل الوصفية ـ الشرطية ـ الظرفية).

كتاب يقع في (٣١٦) صفحة، نشرت طبعته الأولى سنة ١٩٩٨م.

١٥. التعريف بالتصريف.

كتاب يقع في (٤١٨) صفحة، نشرت طبعته الأولى سنة ٢٠٠٠م.

١٦. تعليم النحو العربي: بحث في المنهج.

كتاب يقع في (٣٠٥) صفحة، نشرت طبعته الأولى سنة ١٩٩٣م.

١٧. التعليم والعربية: رؤية من قريب.

كتاب يقع في (١٩٢) صفحة، نشرت طبعته الأولى سنة ٢٠٠٦م.

١٨. النحو الميسر، بالاشتراك مع الأستاذ الدكتور عبد الرحمن محمد السيد (رحمه الله) والأستاذ الدكتور أمين على السيد، بتكليف من المجلس القومى للتعليم بجمهورية مصر العربية.

هذا بالإضافة إلى عدد كبير من البحوث والمقالات المنشورة في المجلات العلمية المتخصصة (٥٦ بحثا ومقالة).

* مؤلفاته الأدبية:

الذي لا يعرفه الكثيرون أنه ـ رحمه الله تعالى ـ كان يقرض الشعر، ولم ينشر منه شيئاً، ويكتب الرواية أيضاً، ونشر إحدى عشرة رواية هي :

١– الموت عشقاً ؛ طبعت ثلاث طبعات، ونشرت لأول مرة عام ١٩٩٠م.

٢– العاشق ينتظر، ونشرت ثلاث مرات وطبعت الطبعة الأولى عام ١٩٩٢م.

٣–أشجان العاشق، وطبعت مرتين، وخرجت الطبعة الأولى عام ١٩٩٤م.

٤– الساعة الأخيرة، وطبعت أربع مرات، ونشرت لأول مرة عام ١٩٩٦م.

٥– سفر الغربة، وطبعت مرتين، ونشرت لأول مرة عام ١٩٩٩م.

٦– زهرة البنفسج، وطبعت مرتين، ونشرت لأول مرة ٢٠٠٤م.

٧- أحلام الكرى، ونشرت مرتين، ونشرت لأول مرة ٢٠٠٨م.

٨- على الهامش، ونشرت لأول مرة ٢٠٠٨م.

٩- سماء بغير نجوم، طبعت مرتين، ونشرت لأول مرة ٢٠٠٩م.

١٠- وميض عينيها، خرجت الطبعة الأولى ٢٠١٠م.

١١- تجليات الوهن، وطبعتها دار الهاني للطباعة والنشر عام ٢٠١٠م.

وتحت الطبع رواية بعنوان صفحات مطوية من السيرة العلية، وروايات أخرى غاب عني تدوينها الآن.

*** الخبرة العملية:**

١. اختير لوضع خطط الدراسة ومناهجها في أقسام اللغة العربية بكليات الآداب والتربية في ليبيا.

٢. شارك في وضع خطط الدراسة ومناهجها في قسم اللغة العربية بكلية الآداب والعلوم الاجتماعية بجامعة الملك عبد العزيز بجدة بالسعودية.

٣. شارك في وضع خطط الدراسة ومناهجها في قسم الدراسات العليا بكلية اللغة العربية بجامعة أم القرى بمكة بالسعودية.

٤. شارك في وضع خطط الدراسة ومناهجها في الدراسات العليا في تخصص النحو والصرف وفقه اللغة بكلية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض بالسعودية.

٥. شارك في عدد كبير من المؤتمرات العلمية والندوات المتخصصة في داخل الجمهورية وخارجها.

٦. أشرف على عدد كبير من رسائل الدكتوراه والماجستير بجامعات : القاهرة، وعين شمس، وأسيوط، وجنوب الوادى، وأم القرى، والإمام محمد بن سعود : (٣٤ رسالة دكتوراه، ٥٣ رسالة ماجستير).

٧. اشترك في مناقشة عدد كبير من رسائل الدكتوراه والماجستير في الداخل والخارج : (٥٩ رسالة دكتوراه، ٧٨ رسالة ماجستير).

٨. عضو محكم لعدد كبير من المجلات العلمية المتخصصة التي تصدر في الجامعات العربية، منها :

* حولية دار العلوم التي تصدرها كلية دار العلوم جامعة القاهرة.
* مجلة كلية اللغة العربية بجامعة أم القرى.
* مجلة جامعة أم القرى.
* كتاب البحوث والدراسات العربية بجامعة أم القرى.
* مجلة مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامى بجامعة أم القرى.
* مجلة كلية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض.
* مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض.
* مجلة "دراسات" (العلوم الإنسانية) التي تصدرها الجامعة الأردنية.
* مجلة مجمع اللغة العربية الأردنى.
* مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق.
* مجلة الدراسات اللغوية التي تصدرها مؤسسة الملك فيصل بالرياض.
* مجلة البحث العلمي التي تصدرها جامعة الأقصى بغزة فلسطين.

٩. عضو محكم في اللجان العلمية التي تشكل لترقية أعضاء هيئات التدريس إلى وظائف الأساتذة والأساتذة المشاركين في جامعات : الأردن، والبحرين، والسعودية، والسودان، وليبيا، واليمن.

١٠. عضو محكم في اللجنة العلمية الدائمة للغة العربية وآدابها للترقية لوظائف الأساتذة والأساتذة المساعدين بالجامعات المصرية (سابقا).

١١. أمين اللجنة العلمية الدائمة للغة العربية وآدابها للترقية لوظائف الأساتذة

والأساتذة المساعدين بالجامعات المصرية (سابقا) .

١٢ . مقرر اللجنة العلمية الدائمة للغة العربية وآدابها بالمجلس الأعلى للجامعات المصرية .

١٣ . رئيس قسم النحو والصرف والعروض بكلية دار العلوم جامعة القاهرة (سابقا) .

١٤ . مدير مركز التدريب اللغوى بكلية دار العلوم جامعة القاهرة (سابقا) .

١٥ . وكيل كلية دار العلوم جامعة القاهرة لشئون التعليم والطلاب (سابقا) .

١٦ . عميد كلية دار العلوم – جامعة القاهرة (سابقا) .

١٧ . أستاذ متفرغ بقسم النحو والصرف والعروض بكلية دار العلوم جامعة القاهرة (سابقا) .

ترشحه لجائزة الملك فيصل العالمية :

أعلنت الأمانة العامة لجائزة الملك فيصل موضوع الجائزة في مجال اللغة في الفكر النحوي عند العرب لعام ١٤٣١هـ. وكان من المرشحين، الأستاذ الدكتور علي أبو المكارم لكونه قد ألف في هذا الموضوع، وأصدر كتابين متخصصين في الفكر النحوي ومجالات التفكير النحوي، هما : كتاب أصول التفكير النحوي؛ ويقع في (٤٣٩) صفحة، ونشرت طبعته الأولى سنة ١٩٧٢م، وكتاب تقويم الفكر النحوي ؛ ويقع في (٢٩١) صفحة، ونشرت طبعته الأولى سنة ١٩٧٤م.

كان الاتصال بيني وبينه مستمرّاً لهذا الغرض، وفعلاً نقصت بعض النسخ من بعض الكتب، فهاتفته بجميع النواقص التي طلبتها الأمانة، وأرسلها ـ رحمه الله تعالى ـ لي مناولة مع الزميل د. محمد العميريني الذي كان موجوداً في القاهرة في ذلك الوقت، وقد تمكنت من تسليمها واستيفاء جميع الشروط المطلوبة للترشيح قبل نهاية الموعد، جميع ذلك تمَّ بمتابعة منه ومني مباشرة لهذا الموضوع.

مسوغات الترشيح(١):

تتعدد جوانب الإنتاج العلمي للأستاذ الدكتور على أبو المكارم، والدراسة الموضوعية لهذه الجوانب تكشف عن حقيقة بارزة، وهي أنه يقدم في كل مجال من مجالات هذا الإنتاج إضافات شديدة الثراء والتنوع والخصوبة للدراسات النحوية المعاصرة، ولعل من أهم ما ينبغي الوقوف عنده في هذه المناسبة ما قدمه في نطاق: "الفكر النحوي"، فإن أعماله في هذا الحقل تقدم نمطا متميزا من الدراسات بما تمثله من عمق ورصانة وشمول واستيعاب وبصر بمختلف جوانب القضايا محور الدراسة وإحاطه دقيقة بجوانبها ومشكلاتها، والإدراك الواعي لخصائصها وعلاقاتها، والإنتاج العلمي الذى قدمه في مجال الفكر النحوي والذي يتمثل في عدد كبير من كتبه التي في طليعتها:

- أصول التفكير النحوي.
- تقويم الفكر النحوي.
- الظواهر اللغوية في التراث النحوي.
- مقومات الجملة العربية.
- تعليم النحو العربي.
- التعليم والعربية.

إن هذه الكتب تؤكد المقدرة الفذة على الاتصال الوثيق بالتراث والمعاصرة والإفادة منهما معا في تحديد العناصر المحورية في الفكر النحوي والوقوف على دلالاتها واستكناه علاقاتها، ثم استخدام هذه العناصر في بناء عمل علمي متماسك يمثل بتكامل رؤيته نمطا جديدا في الفكر النحوي.

ومما تجسده هذه الأعمال العلاقة المتفاعلة فيها بين المنهج والمادة وما تمثله من صلة ديناميكية بين الكليات والجزئيات، فهو حين يبدأ من الكليات لا يقف

(١) من إعداد د. علي أبو المكارم من أجل الترشح للجائزة.

عندها بل يجعلها منطلقا إلى الجزئيات ليتعرف على مقوماتها وخصائصها من جهة، ويفهم الروابط التي تربطها بغيرها من الجزئيات من جهة أخرى، ثم يعود بعد ذلك إلى الكليات في أطرها التطبيقية ليعيد نسج علائقها ويمنحها مقوماتها، وبهذا كله استطاع أن يضيف إلى الفكر النحوي مقومات جديدة غير مسبوقة في كلياته وجزئياته معا.

ويتسع كل عمل من هذه الأعمال لدراسات متعددة، لكنني سأكتفي في الصفحات القليلة الآتية بتقديم خلاصة شديدة الإيجاز عن كل منها؛ لضيق المجال هنا.

نظرة في جهود الأستاذ الدكتور/ علي محمد أبو المكارم

الميدان الذي عني به الأستاذ الدكتور/ علي أبو المكارم وركز فيه جهوده العلمية التي تواصل عطاؤه فيها لمدة تقرب من نصف قرن هو ميدان النحو العربي الذي تنوعت مجالات اهتمامه به، بدءاً من التحديد العلمي الدقيق لخصائصه مادةً ومنهجاً، والتعرف على مقوماته الأساسية لاكتشاف جوانب الصواب والخطأ فيها وانتهاءً بالتوصل إلى وضع منهج علمي جديد لهذه المادة التي شغلت الباحثين فيها، والمتخصصين في مجالها أكثر من ثلاثة عشر قرناً وبعض القرن، وفي سبيل تحقيق هذه الغاية اهتم بالتحليل العلمي لعدد من القضايا الدقيقة البالغة الأهمية في البحث النحوي في عصوره المختلفة، وفي طليعة هذه القضايا:

١- بيان مدى أصالة التفكير النحوي.

٢- تحديد مدى صلاحيته لاعتماده بناءً متكاملاً صالحاً للاستمرار متجدد العطاء.

٣- اكتشاف الخصائص الجوهرية التي تميز الجملة العربية، وتحديد مفاهيمها، ومكوناتها وعلاقاتها، وأخيراً تباين أنواعها وأنماطها.

وقد عرض هذا كله من خلال الوقوف على الظروف الحضارية التي أحاطت بالنحو العربي باعتباره عنصراً جوهرياً في البناء الفكري في الحضارة الإسلامية، بما في ذلك التعرف العلمي الدقيق على مدى استجابة هذا الفكر للتأثر بالترجمة من اللغات المختلفة، كاليونانية والسريانية والسنسكريتية والفارسية وغيرها من اللغات القديمة، والإنجليزية والفرنسية والألمانية، وغيرها من اللغات الحديثة. وكذلك مدى إفادة هذا الفكر من العلوم المتعددة كالفقه والأصول وعلم الكلام والفلسفة والمنطق.

وقد قدم الدكتور أبو المكارم في هذا الشأن نتائج بالغة الأهمية جعلت منه رائداً للتأصيل العلمي للفكر النحوي، ووضعته في موضع الصدارة بين علمائه المعاصرين، وأصبح بفضل ما قدمه صاحب مدرسة علمية متميزة، اهتدى بها والتزم بنتائجها عدد كبير من الباحثين في مصر وخارجها الذين أصبحوا - بفضل هذا التميز - يمثلون تياراً أساسياً في البحث النحوي المعاصر. وهكذا يمكن القول - دون تجوز - بأنه ليس بين النحاة المعاصرين من يجهل أو يتجاهل أعماله العلمية، مثل: مناهج البحث عند النحاة العرب، وأصول التفكير النحوي، وتقويم الفكر النحوي، والظواهر اللغوية في التراث النحوي، ومقومات الجملة العربية، كما أنه لا يوجد أحد تجاوز ما قدمه من نتائج علمية عن الجملة العربية وخصائصها وعلاقاتها وأنواعها وأنماطها التي اكتشف فيها اكتشافات بالغة الأهمية حين جعلها تميز بين خمسة أنواع يعد كل نوع منها إضافة جديدة إلى ما كان مأثوراً في التراث، إذ لم يكن يتجاوز هذا المأثور نوعين فحسب، هما: الجملة الاسمية – والجملة الفعلية، لكن الأستاذ الدكتور علي أبو المكارم بتحليلاته الموضوعية قدم إلى جوار هذين النوعين أنواعاً ثلاثة هي: الجملة الشرطية، والجملة الوصفية، والجملة الظرفية، وحدد مكونات كل نوع وخصائصه التركيبية والدلالية.

وفي نطاق نظرته الكلية التي تتسم بالاستيعاب والاستقصاء والقدرة الكاملة على التحليل الموضوعي للظواهر من مفردات ومركبات وتراكيب وجمل استطاع الأستاذ الدكتور علي أبو المكارم أن يعرض لمناهج البحث النحوي قديماً وحديثاً وأن يحدد الجوانب السلبية والإيجابية فيها، الأمر الذي مكنه من بناء منهجه المتميز الذي لم يعد في وسع أحد من الباحثين تجاهله، ويعود ذلك إلى أمرين أساسيين: الأول ما اتسم به هذا المنهج من شمول واستيعاب وإحاطة ودقة وبراعة في التحليل وموضوعية في التناول، والثاني ما توصل إليه من نتائج علمية مهمة استبعدت جوانب القصور وتجنبت أسبابها، واستوعبت العناصر الإيجابية ومن ثَمَّ أعادت توظيفها، وهكذا أصبحت هذه العناصر لبنات قوية في بناء منهجه العلمي شديد التماسك.

ومن أهم ما أضافه الأستاذ الدكتور/ علي أبو المكارم في الدراسات النحوية ما قدمه في علم أصول النحو وهو علم يعد أهم جوانب البحث في النحو العربي؛ لأن فيه من المؤثرات المتعددة التي تمتد جذورها إلى المكونات الثقافية والفكرية المختلفة ما يحتاج إدراكه وتحليله إلى بصر دقيق ورؤية نافذة وفهم عميق للعناصر وكيفية تفاعلها ووعي كامل بالمقومات ومدى تداخلها وحسن تتبع للخصائص الفكرية ومصادرها، وقد تمكن الدكتور أبو المكارم بدراسته البالغة الأهمية لهذا العلم أن يقدم ما يعد كشفاً شديد الأهمية، إذ استطاع أن يتتبع بوضوح نشأته ومراحل تطوره والمؤثرات البارزة فيه وعناصر التواصل الفكري بينه وبين الثقافات الأخرى عبر هذه المراحل والمؤثرات ولقد التزم في تناول هذا العلم (علم أصول النحو) بأسس ثلاثة هي كما ذكرها بوضوح في صدر كتابه: أصول التفكير النحوي:

أولاً: بلورة المعطيات الفكرية المؤثرة فيه، انطلاقاً من أن هذا العلم ليس مجموعة من القواعد الكلية العامة فحسب، بل هو قبل كل شيء موقف فكري

محدد تجاه الأشياء والعلاقات، ولا سبيل إلى استكناه هذا الموقف واستكشاف آفاقه إلا بربطه بالمؤثرات المختلفة المتصلة به.

ثانياً: الحرص على الترابط بين المعطيات الفكرية والمؤثرات الاجتماعية، وانطلاقاً من التكامل في رؤية الواقع الإنساني والطبيعي، باعتبار أن هذا التكامل هو الموقف الأكثر موضوعية في تفسير الأشياء والعلاقات، بل لعله الموقف الموضوعي الوحيد القادر على استيعاب الواقع بشقيه: الفردي والاجتماعي وفي مجاليه الروحي والمادي.

ثالثاً: تحديد أولويات البحث العلمي بحيث يبدأ بالأصول قبل الفروع؛ إذ إن الأصول هي التي تبنى عليها الفروع، وكل محاولة للنظر في الفروع قبل الاتفاق على الأصول محاولة تعد من قبيل القفز في الفراغ.

* * *

وبالإضافة إلى هذا كله فإن جهود الأستاذ الدكتور أبو المكارم لم تتوقف عند ما أضافه إلى البحث العلمي، ولم تقتصر على المنهج الذي توصل إليه واتبعه بعده تلاميذه وغيرهم من الباحثين المعاصرين، والذي في نطاقه تم التوصل إلى عدد كبير من النتائج المهمة في البحث النحوي، بل تجاوز تأثيره ذلك حين قدم منهجاً واضحاً لتعليم النحو العربي، تلافى فيه صور القصور المتعددة التي كثيراً ما كانت تؤخذ على تعليم هذا النحو، ووسمت هذا العلم بالتعقيد والمشقة منذ عصوره المبكرة، وفي إطار هذا المنهج تخلصت القواعد النحوية من الاضطراب والتداخل والقصور، وبرئت من أشكال الحذف والتقدير والتأويل والزيادة والعلل ونحوها مما كان يشوب تعليم النحو ويعقد مسالكه ويشوش علاقته وأحكامه، الأمر الذي مكن المتعلم من الإحاطة بالقواعد واستيعابها وفهم علاقاتها والإلمام بأحكامها ومنحته بفضل ذلك القدرة العلمية على تطبيق هذه الأحكام بسهولة ويسر.

يحسن ـ بعد هذه النظرة العامة لجهود الأستاذ الدكتور/ علي أبو المكارم ـ أن نقف بصورة خاصة أمام عدد من أعماله العلمية التي يستحق كل منها ـ منفردا ـ هذه الجائزة الرفيعة.

أصول التفكير النحوي:

يقدم هذا العمل الرائد رؤية كلية للأصول النحوية، وهي رؤية تبدأ من مجموعة من المقومات الأساسية التي تحرص في مجموعها علي الالتزام الكامل بالموضوعية، والاستيعاب الدقيق لمعطيات التفكير النحوي ومقولاته الأساسية، كما أنها تحرص علي الربط الواعي بين العناصر والمسائل الجزئية والحقائق الفرعية، لتنطلق منها إلى الأطر الكلية، باعتبار أن هذا الربط منطلق ضروري لتفسير الأشياء وتحديد العلاقات.

ويقع هذا العمل الفريد في بابه في تمهيد، وثلاثة أبواب، وخاتمة.

أما التمهيد فقد تناول العلاقة بين علم أصول النحو " وأصول التفكير النحوي، وأنتهي من هذا التناول إلى أن علم أصول النحو أحدث نشأة، أما أصول التفكير النحوي فأقدم وجودا، ثم إن علم أصول النحو بمضمونه المحدد وموضوعاته المعينة محدود، أما أصول التفكير النحوي "فيتسم بالشمول، لأنه يمتد إلى مدى أكثر رحابة حين يتناول جميع الأسس الكلية التي بني عليها النحاة العرب قواعدهم الجزئية وأحكامهم التفصيلية عبر مختلف المراحل التاريخية وأما الباب الأول فقد تناول بشكل مفصل العلاقة بين القياس والاستقراء في النحو العربي وخلص من هذه العلاقة إلى أن المنهج الذي اتبعه النحويون المتقدمون كان استقرائيا، لكنه ما لبث أن أصبح قياسيا بتأثر مجموعة من العوامل جاء في طليعتها الاتصال بالثقافة اليونانية بشكل عام، وبالفلسفة والمنطق بصورة خاصة.

وقد وقع هذا الباب في فصول ثلاثة، كان كل فصل منها ذروة شامخة في

الاستيعاب والتحليل والتفسير تناول أولها المفهوم الاستقرائي للقياس، وبحث ثانيها المفهوم الشكلي للقياس وعرض ثالثها لأبعاد التغير في مفهوم القياس ونتائجه.

ووقف الباب الثاني علي دراسة العلاقة بين التقعيد والتعليل، واستعرض الصلة التاريخية بينهما، محدداً مواقف النحاة منهما، منتهياً إلى تحديد أبعاد ما كان من تغير في العلاقة بين القواعد والعلل والتعليلات من جهة، ونتائجها في الفكر النحوي من جهة أخرى.

وقد وقع هذا الباب بدوره في فصول ثلاثة، بحث أولها التطور التاريخي، وعرض ثانيها لمواقف النحاة، وقدم ثالثها تحديدا لأبعاد التغير في العلاقة بين التقعيد والتعليل وما كان له من نتائج.

واختص الباب الثالث بدراسة مواقف النحاة من النصوص اللغوية، ما كان فيها ينتمي إلى عصر الاستشهاد ومالم يكن ينتمي إليه، مستعرضا في دقة بالغة المراحل المختلفة التي مربها الالتزام بنصوص اللغة في التراث النحوي، ومظاهر هذا الالتزام، وأسبابه، وما كان له من نتائج في الفكر النحوي واللغوي، وتم ذلك كله في نطاق فصول ثلاثة، عرضت بالتفصيل للتطور التاريخي لمواقف النحاة من النصوص، ثم أساليب التأويل التي ابتكرها النحاه للتوفيق بين القواعد والنصوص، وأخيرا الأشكال التطبيقية لهذه الأساليب النمطية كما وردت في التراث النحوي.

ويعد هذا العمل الفذ منطلقا حقيقياً للدراسات الحديثة التي عرضت للفكر النحوي، وما قدمه من رؤي وإضافات وإضاءات يعد من الركائز المحورية التي بني عليها كثير من الباحثين المعاصرين وقد قدم فضلا عن ذلك ما يمكن أن يعد موقفاً فكرياً علميا شديد الدقة والاتساق، حين أخذ بضرورة الوعي بالصلة الحية والمباشرة بين حركة الفكر النحوي وإبعاد التفكير الإنساني، وصلة كل منهما

بالواقع الاجتماعي، بحيث يمكن القول بأن الفكر النحوي هو البؤرة التي امتدت اليها المؤثرات الثقافية والفكرية والاجتماعية جميعاً.

تقويم الفكر النحوي:

يعالج الكتاب قضيتين بالغتي الأهمية في التراث الفكري العربي والإسلامي أولاهما بيان مدى أصالة التفكير النحوي واللغوي في هذا التراث، والثانية تحديد مدى صلاحيته لاعتماده بناء متكاملاً صالحاً للاستمرار متجدد العطاء. وقد تناول هاتين القضيتين كثير من الباحثين في إطار محكم من المرويات والمأثورات لكن هذا الكتاب يدرسهما من وجهة نظر أكثر شمولاً واستيعابا، انطلاقا من الوقوف على الظروف الحضارية التي أحاطت بالنحو العربي بخاصة أو الفكر الإسلامي بعامة، نشأة وتطورا، والتعرف على مدى تأثرها بالترجمة من اللغات المختلفة كاليونانية والسريانية والسنسكريتية والفارسية وغيرها أو كذلك مدى إفادتهما من العلوم الأخرى كالفقه والأصول وعلم الكلام والفلسفة والمنطق.

وواضح أن موضوعات هذا الكتاب تتسم بالأهمية البالغة، وأنها لذلك تستلزم اليقظة الفكرية والوعي الدقيق والفهم المستوعب والفطنة لمقتضيات التحليل والتركيب، كما أنها تفرض التسلح بالتكامل بين التخصص الدقيق والثقافة الشاملة، مع التزام بالموضوعية في تقرير الحقائق بغض النظر عن موقفنا منها وتقبلنا لها، الأمر الذي يتطلب شجاعة فكرية والأخلاقية معا ووقعت دراسة هذه الموضوعات في بابين متكاملين، حاول أولهما تقديم تقويم شامل للفكر النحوي من الناحية التاريخية بغية تحديد مدي أصالة هذا الفكر ومن ثم قصد إلى دراسة المصادر الأساسية للأفكار الرئيسية للأصول النحوية، وقد أثبت التحليل الموضوعي لهذه الأفكار أن الأصول النحوية قد استمدت مقوماتها من عناصر إسلامية خالصة طوال فترة تاريخية، طويلة قبل تأثر هذه الأصول بمؤثرات أخرى غير إسلامية في

أخريات القرن الثالث الهجري وما بعده.

وقد وقع هذا الباب في ثلاثة فصول:

تناول الفصل الأول مدي أصالة الفكر العربي باعتبار ذلك مدخلا لا غنى عنه لدراسة مدى أصالة الفكر النحوي.

وقصد الفصل الثاني إلى تحديد مدى أصالة الفكر النحوي وذلك من خلال الوقوف على الظروف الموضوعية التي بلورت مقومات هذا الفكر وحددت خصائصه.

وبحث الفصل الثالث العوامل الطارئة التي كان لها تأثيرها في الفكر بعد الترجمة إلى العربية.

وقصد الباب الثاني من هذا الكتاب الجليل إلى دراسة مدى صلاحية الفكر النحوي، وتبيان العناصر الجوهرية فيه وقيمتها ومدى ما تتسم به من سلامة أو قصور. وقد اهتم في هذا المجال بجوانب ثلاثة عقد لكل منها فصلا خاصا، قصد أولها إلى دراسة الخلط بين مستويات الأداء اللغوي، واهتم الثاني بما أسماه: التناول الجزئي وطرد الأحكام، وبحث الثالث التداخل المنهجي محددا أهم العلوم التي تركت آثارا في الفكر النحوي وجاء في طليعتها علم الأصوات، وعلم الأصول، وعلما الفلسفة والمنطق وأخير علم الكلام.

ومن الثابت أن هذا الكتاب بمادته ومنهجه وما توصل إليه من نتائج يعد علاقة بارزة في الدراسات المعاصرة التي عرضت بأمانة وموضوعية لأدق ما في الفكر النحوي من قضايا وأخطر ما يحفه من مشكلات.

الظواهر اللغوية في التراث النحوي:

يعد هذا الكتاب الذي صدرت طبعته الأولى سنة ١٩٦٨م أول كتاب ظهر في العصر الحديث يتناول بشكل مباشر وتحليل دقيق الظواهر اللغوية في العربية من

خلال التراث النحوي ويحدد مقومات هذه الظواهر، وخصائصها، ويقدم تفسيرا علميا موضوعيا لكل منها.

وقع هذا الكتاب في ثلاثة أبواب، اختص كل باب منها بظاهرة من ظواهر العربية، متناولا إياها من كافة جوانبها، مقدما ما ورد من تحليل لها، منتهيا من عرضه إلى تقديم تفسير مستوعب للظاهرة ومقوماتها وخصائصها.

وقد تناول الباب الأول ما أسماه المؤلف "ظاهرة التصرف الإعرابى"، وقد بحث الفصل الأول من هذا الباب تأصيل هذه الظاهرة في العربية، وأوضح أن تغير أحوال أواخر الكلمات موجود في عدد من اللغات اللاتينية والسامية، لكن التصرف الإعرابى خاصة من خصائص العربية، كما تناول هذا الفصل بحث مدى أصالة الظاهرة في العربية، وعرض في هذا الشأن لمواقف المستشرقين وأدلتهم، وانتهى منها إلى أن أصالة الظاهرة في العربية حقيقة علمية ثابتة، وقدم لتأكيد ذلك عددا من الأدلة القاطعة.

وقدم الفصل الثاني تحليلا لظاهرة التصرف الإعرابي من خلال مبحثين متكاملين، يعرض أولهما لتقنين الظاهرة وخصائص هذا التقنين، ويقدم الثاني تفسير الظاهرة واتجاهات هذا التفسير، وقد استطاع في هذا الشأن أن يقدم ثلاثة أنماط من الاجتهادات في تفسير الظاهرة، أولها التفسير الدلالي، وثانيها التفسير الصوتى، وثالثها التفسير المنطقي، وهكذا أحاط هذا الفصل إحاطة دقيقة بموضوعه، بحيث استطاع أن يقدم مع الفصل الأول دراسة مستوعبة لهذه الظاهرة في العربية، وعلى كثرة ما كتب عن الإعراب والبناء في العربية قديما وحديثا يظل هذا الباب عن ظاهرة التصرف الإعرابي عملا علميا شديد الأهمية والتألق والإحاطة والابتكار.

واختص الباب الثاني بما أسماه المؤلف "ظاهرة التطابق"، وهو أول عمل علمي

في العربية في العصر الحديث يحدد بدقة أبعاد هذه الظاهرة، ومكوناتها، واتجاهاتها، وكثيرا ما أفاد منه الباحثون من بعد، وإن آثر بعضهم أن يطلق لفظ "المطابقة" بدلا من "التطابق"، في محاولة لإبعاد شبح التأثر بهذا العمل الرائد، ولكنها محاولة لا تحقق أهدافها عند الباحثين المدققين.

لقد أحاط الباب بهذه الظاهرة من جوانبها المختلفة من خلال ثلاثة فصول، تناول الفصل الأول منها "التطابق بين اللفظ المفرد والمعنى" وقد حدد بشكل علمي دقيق وسائل هذا النوع من التطابق، وفصل القول فيها في سبع وسائل هي: اختيار الأصوات الملائمة للمعنى، وتركيب الحركات في الصيغة، وتضعيف أحد الأصول، وزيادة بعض الحروف، والتضعيف والزيادة معا، والاستعانة باللواصق، وأخيرا تغيير الصيغة.

وتناول الفصل الثاني "التطابق بين التركيب والموقف اللغوي"، وبحث أساليب هذا النوع من التطابق، وذكر منها ثلاثة، هي: الترتيب بين أجزاء الجملة، وحذف بعض أجزائها، والاستعانة بالصيغ، كما حدد المجالات والأغراض التي يستعان بها فيها.

وبحث الفصل الثالث "التطابق بين أجزاء الجملة"، وقد شرح فيه صور التطابق الممكنة، وصور التطابق الفعلية، وقدم دراسة تطبيقية لهذه الظاهرة في بعض تراكيب العربية، مثل: الفعل والفاعل والمفعولات، والمبتدأ والخبر، والوصف والموصوف.

وبحث الباب الثالث ما أسماه المؤلف "ظاهرة الترتيب"، وهي أول دراسة في العصر الحديث تقصد إلى تبيان هذه الظاهرة وتقدم رؤية مستوعبة لها، وكان لها تأثيرها في الدراسات التي أجريت بعد ذلك، وإن حاول أولئك المتأثرون أن يعدلوا عن مصطلح "الترتيب" إلى مصطلح آخر وهو "الرتبة" ليبعدوا عن أنفسهم شبهة

التأثر بهذا العمل الرائد، ولكنها محاولة ليست قادرة على تحقيق هدفها عند المحققين من الباحثين.

بدأ المؤلف هذا الباب بتحديد المؤثرات في ترتيب الأصوات في الصيغ، وتلك التي تؤثر في ترتيب الصيغ في التركيب، وقد استوعب ما ورد في التراث النحوي وانتهى منه إلى أن هذه المؤثرات ثلاثة، هي التأثير في المضمون، والعمل النحوي، والترابط بين الصيغ، وخص كل مؤثر منها بفصل من فصول هذا الباب.

في الفصل الأول درس المؤلف "التأثير في المضمون"، واستوفي بشكل دقيق ما ورد من صيغ ذات اثر فيه، وأهمها صيغ الشرط، والاستفهام، والتعجب، وضمير الشأن، والنفي، والتنبيه، والتحضيض، والتوكيد، ونحوها، وأبرز أثر كل منها في تحديد الترتيب في الجملة العربية.

وفي الفصل الثاني درس ما "للعمل" النحوي من تأثير في الترتيب، وقد تحدث عن القوانين العامة المنظمة للعمل، ومنها مدى أصالة العامل في عمله، وتصرفه وجموده، وأنواع العوامل اللفظية والمعنوية، وتأثير ذلك كله في ترتيب الجملة العربية.

وفي الفصل الثالث درس المؤلف "الترابط بين الصيغ"، محددا في بداية الفصل دلالة المصطلح ـ شأنه فيه شأنه في باقي فصول الكتاب ـ ثم قدم عقب ذلك دراسة تطبيقية لأثر الترابط بين الصيغ في الترتيب في الجملة العربية، منتهيا من ذلك إلى عدد من النتائج البالغة الأهمية.

إن أهم ما يتسم به هذا العمل العلمي الجليل، فضلا عن كونه الرائد الأول في مجاله، يتمثل في الدقة والموضوعية والابتكار وحسن استيعاب التراث النحوي والإفادة من المدارس اللغوية الحديثة، والمقدرة على توظيف هذا كله في تقديم عمل علمي أصيل يؤكد ثراء العربية ونحوها.

مقومات الجملة العربية:

صدرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب سنة ١٩٨٢م، ومنذ صدوره وإلى اليوم ومازال يمثل عملا علميا شديد الأهمية، لأنه قدم - ربما للمرة الأولى - دراسة "نظرية" عن الجملة العربية، دراسة تقف عند حدود الأحكام الجزئية التفصيلية ولكنها لا تتوقف عندها، بل تنطلق منها إلى تحديد الأطر الكلية للجملة العربية، ومفهومها، وأنواعها، وخصائصها، والعناصر المحورية لها، والمكونات الأساسية لكل منها.

وقد بحث الفصل الأول من هذا الكتاب "مفهوم الجملة في التراث النحوي" وتناول نشأة هذا المصطلح، وتطوره، ودلالات هذا التطور، ومقومات هذا كله، وقدم في هذا المجال دراسة مستوعبة لما جاء في التراث النحوي، وناقشه، وحدد من خلاله مواقف النحويين وعلاقة هذه المواقف بعضها ببعض، وانتهى منها إلى أن كثيرا من النحويين حددوا مواقفهم انطلاقا من مقولة "الفائدة"، بينما ذهب آخرون إلى القول "بالإسناد"، وسجل في هذا المجال ما رأى من ملحوظات، كان أبرزها الخلاف حول طبيعة الفائدة المقول بها، وهل هي تامة أو ناقصة، ومعنى تمام الفائدة ونقصانها، وما الغاية منها، وهل هي مقصودة أو غير مقصودة، وأوضح أنه في إطار هذا كله تعددت مواقف النحويين في عدد من "التراكيب" التي تتضمن فوائد تامة ولكن احتمال القصد فيها قد لا يكون واردا، وما يتصل بذلك من لحظ ما قد يكون من نتائج للفائدة بالفعل في الموقف اللغوى.

وانتقل المؤلف بعد ذلك إلى مقولة "الإسناد"، فحدد مفهومه، وفصل أنواعه، وقال بوجود نوعين مختلفين منه، هما الإسناد الأصلي، والإسناد غير الأصلي، وحدد ملامح كل منهما، وعرج على عدد من النماذج اللغوية التركيبية التي تستدعي التأمل، إما لأنها قد توافر فيها عنصر الإسناد دون الفائدة، أو تحققت فيها

الفائدة دون الإسناد.

وتناول الفصل الثاني "حجم الجملة في التراث النحوي" وذلك من خلال مباحث ثلاثة، لعلها ـ في مجموعها ـ أهم ما كتب عن حجم الجملة العربية في الدراسات المعاصرة حتى الآن، وقد دار المبحث الأول عن الحد الأدنى لحجم الجملة، وقدم الثاني الأشكال النمطية لهذا الحجم، وبين الثالث العوامل المؤثرة فيه والأهداف المتوخاة له، وانتهى من هذه المباحث الثلاثة، ـ التي يتعذر تلخيصها لما تتسم به من دقة واستيعاب وشمول ـ إلى تحليل عدد من المقولات التي كان لها تاثيرها المباشر في "تشكيل" الجملة العربية، فذكر منها بالتفصيل أربع مقولات، هي: الإسناد، والعمل، وتعدد مستوى المبنى، وتعدد الوجوه والاحتمالات.

وقدم الفصل الثالث دراسة مفصلة لتقسيمات الجملة في التراث النحوي من خلال مبحثين متكاملين، الأول يحدد الأسس التي روعيت في تقسيمات الجملة والاعتبارات التي حكمت هذه التقسيمات، والثاني قدم الأقسام ومقوماتها وخصائصها. وفيما يتصل بالمبحث الأول وقف الكتاب عند عدد من المحاور التي رأى أنها بمثابة أسس كلية حاكمة، أهمها طبيعة الإسناد، وشكله، وأطرافه، ومدى قابليته للنسخ، ومدى صلاحيته للامتداد، ونوع العناصر الممتدة، وعلاقات التطابق القائمة والممكنة، وأخيرا العلاقات الموقعية.

وفي ضوء هذه الأسس السبعة راح الكتاب يعرض بالتفصيل لأقسام الجملة العربية، وأنواعها، ومقومات كل نوع، وقد توصل إلى وجود خمسة أنواع متميزة من الجمل في العربية، وهي:

١- الجملة الفعلية، وتتميز بأنها بسيطة الإسناد، ولا تقبل النسخ، وتلتزم بالتطابق النوعي، وصالحة للامتداد.

٢- الجملة الاسمية، ويمكن أن تكون بسيطة كما يمكن أن تكون مركبة،

وتقبل النسخ، وواجبة التطابق، وتقبل الامتداد بالعناصر التي لا ترتبط بالفعل، والأصل فيها الترتيب، لكن قد تجد اعتبارات تجعل مخالفة هذا الأصل واجبة.

٣- الجملة الظرفية، وتتسم بالبساطة، ولا تقبل التطابق العددي أو النوعي.

٤- الجملة الوصفية، وتتسم بالبساطة، وامتناع التركيب، وقابلية الامتداد، والالتزام بالتطابق، والالتزام بالترتيب، وعدم قابلية النسخ.

٥- الجملة الشرطية، وأبرز خصائصها تعدد الإسناد، وعدم قبول النسخ، ولا الامتداد في الجملة، وإن كان بعض مكوناتها تقبلها، والتزام الترتيب بين مكوناتها الثلاثة.

ولعل هذا الفصل أهم ما كتب عن أنواع الجملة في العربية في العصر الحديث، وقد استطاع المؤلف فيه أن يحيط بموضوعه إحاطة تامة، وأن يعالجه معالجة دقيقة، فتحت الباب واسعا للإفادة من مقولاته والبناء عليها.

وتناول الفصل الرابع مقولة الجمل التي لها محل إعرابي وتلك التي لا محل لها من الإعراب، وقد صدر تناوله لها بمجموعة من المقومات فصل منها ثلاثة، أولها أن الأصل في الاستعمالات اللغوية والأساس في القواعد النحوية أن يقتصر الإعراب على المفردات، وثانيها أنه لابد من التفرقة في الوظيفة اللغوية والنحوية بين الجملة والمصدر المؤول، وثالثها أن الأصل في الاستعمالات اللغوية والأساس في القواعد النحوية ألا تحل الجملة محل الكلمة المفردة.

وكان مقتضى هذه الأصول معا ألا يفكر النحويون في استقصاء الجمل التي لا محل لها من الإعراب، وتلك التي لها محل، ولكن النحويون - استثناء من هذه الأصول وعدولا عنها وجدوا أن الجملة في مواقع بعينها تسلك سلوك المفردات، فاضطروا إلى تبيان ذلك من خلال عرضهم لهذين النوعين من الجمل: التي لها محل، والتي ليس لها محل من الإعراب.

إن هذا العمل بما قدمه من رؤية دقيقة تكشف عن تفاعل الجمع بين التراث والمعاصرة، وتوضح بجلاء المقدرة على الاستيعاب والفهم وتحديد الأنساق وتبيان معالمها، ووضع المصطلحات الدقيقة المعبرة عنها يعد درة ثمينة في الدراسات النحوية المعاصرة، وهو يستحق منفردا الجائزة.

تعليم النحو العربي:

لعل هذا العمل من بين أهم الأعمال العلمية التي تتناول المشكلات الحيوية للأبعاد النظرية والتطبيقية في النحو العربي، وهو يعرض لهذه المشكلات في أطرها المتعددة التي تقدم في مجموعها إضاءات مهمة للجوانب المختلفة لها، من النواحي التاريخية، والموضوعية، والواقعية، والتجريبية، ويبدأ هذا العمل بمدخل مهم يحدد المقومات التي يقترحها لتحديد هذه المشكلات والتعرف على طبيعتها، ويذكر في هذا المجال عددا من المقولات التي يعد كل منها منطلقا عمليا ـ إلى جانب كونه إطارا فكريا ـ لا يخلو من أهمية بالغة، وتتمثل في الأسس السبعة الآتية:

أولا – تحديد وظيفة النحو وغاياته.

ثانيا – تحديد اللغة التي ينهض النحو بدراسة مستوى من مستوياتها.

ثالثا– التمييز الفكرى والعملي بين تعليم النحو وتعليم اللغة.

رابعا – التفرقة الواجبة بين تعليم النحو والبحث فيه.

خامسا– التمييز الحتمي بين الصعوبات الجوهرية والعرضية في العملية التعليمية.

سادسا– الأخذ بمبدأي فصل المجالات وتكامل المستويات.

سابعا– التفرقة بين تعليم النحو للمتخصصين وتعليمه لغير المتخصصين.

بعد هذا التحديد يقدم هذا العمل عرضا مفصلا للأعمال التعليمية في النحو العربي بدءا من منتصف القرن الثاني الهجري حتى منتصف القرن الرابع الهجري، مستخلصا الخصائص المشتركة فيها والسمات المحددة لها، وما تمثله من مؤشرات

ودلالات زمانية ومكانية وعرفية ومذهبية، وما خلفته من آثار في اختلاف المناهج وتفاوت طرائق المعالجات وتنوع لغة التعليم بين المنثور والمنظوم.

بهذا العرض والتحديد يجيئ دور التحليل لمقومات النحو التعليمي ومقولاته، ويبدأ هذا التحليل بمناقشة القضايا المنهجية الأساسية، وفي صدارتها دور الكتاب في العملية التعليمية والخلط في مؤلفات النحو التعليمي وأسباب هذا الخلط، وأهم هذه الأسباب عدم التحديد الدقيق لوظيفة المؤلف التعليمي، وعدم الالتزام المطلق بلغة متسقة ثم الخلط الواضح بن وظائف النحو التعليمي وتنمية البحث النحوي، وأخيرا عدم الاتساق الضروري في المادة العلمية موضوع النحو التعليمي وما ترتب عليه من اضطراب وتداخل.

في الجزء التطبيقي من هذا العمل يقدم المؤلف دراسة تحليلية لمصنف تعليمي ناجح أثبت فاعليته لقرون، فيعرض له من حيث مادته العلمية وخصائصها الفكرية والأسلوبية، وما تضمنته من ضوابط تقعيدية وما يتصل بها من خصائص نوعية، ثم ما أكثر المؤلف بذكره فيه من تعريفات وتعليلات وتقسيمات وتأويلات، واستشهادات ومسائل خلافية، وما يميز كل عنصر من هذه العناصر من سمات، وينتهي المؤلف من هذه الدراسة إلى أن السمات المشتركة في مصنفات النحو التعليمية بلغت درجة من الشيوع والاستقرار بحيث أقرت صورا متعددة من السلبيات فيها، وأن هذا أمر يفرض ضرورة التفكير في وجود ما يمكن الاصطلاح عليه بالنحو التعليمي، الذي لا تنحصر وظيفته في تلخيص الأبواب والمسائل النحوية، بل في وجوب تقديم بناء كلي يتسم بالاطراد النظري والالتزام التطبيقي معا. أ. هـ ما أعده د. علي رحمه الله عن جهوده.

وفاتــه:

مرض د. علي أبو المكارم في سنته الأخيرة، وأدخل المستشفى عدة مرات، وقبل وفاته بأيام دخل المستشفى الجوي في القاهرة الجديدة، وفي فجر يوم الجمعة ٨/ ١٠/ ١٤٣٦هـ الموافق ٢٤/ ٧/ ٢٠١٥م انتقل إلى رحمة الله تعالى، ودفن في اليوم نفسه في مدافن أسرته في القليوبية، قريباً من قبر والده، وبجانب زوجته، رحم الله تعالى الجميع وغفر لهم، وأسكنهم فسيح جناته، عن اثنين وثمانين عاماً.

وقد أرسل أبناؤه النبأ المؤلم إلى جميع الأشخاص المضافين في جواله، وكان خبراً مؤلماً ومزعجاً، ولكن لله الأمر من قبل ومن بعد وإنا لله وإنا إليه راجعون.

مما قيل فيه بعد وفاته:

ذكر د. حلمي محمد القاعود تقديره الكبير للدكتور علي أبو المكارم، وقال عن الروايات التي كتبها: "فاجأ الراحل الكريم الحياة الأدبية في مرحلة متأخرة (بعد الخمسين) بأعمال أدبية مبهرة حيث أصدر ثلاثية العشق، وهي ثلاث روايات تحمل أسماء: الموت عشقا – العاشق ينتظر – أشجان العاشق، أصدرها في الفترة من ١٩٩٠ إلى ٢٠٠٢. بالإضافة إلى مجموعة قصصية بعنوان: الساعة الأخيرة ٢٠٠٣، وكتاب آخر يندرج تحت السيرة الذاتية اسمه سفر الغربة.

والروايات الثلاث من وجهة نظري تعد من أهم الروايات العربية على الإطلاق: بناء وصياغة ومضموناً، وتمتاز بتكامل الرؤية، وشجاعة التناول وشاعرية الأداء، وهي بالضرورة تفوق كثيراً من الروايات التي يطنطن لها أشباه الأدباء في الحظيرة الثقافية، وينالون عنها أكبر جوائز الدولة، بينما تتواضع قدراتهم إلى حد عدم استطاعتهم بناء جملة عربية دقيقة...

بالطبع كانت هناك مقدمات للطفرة الأدبية التي ظهر بها علي أبو المكارم في

ثلاثيته الروائية، فقد كان في شبابه يكتب الشعر والقصة القصيرة، ولكن الحياة الأكاديمية شغلته بأبحاثها ودروسها ومشاغلها "(١).

وقال الشاعر والناقد شعبان يوسف، عن الروايات التي كتبها د. علي ـ رحمه الله تعالى ـ: "إنه أصدر أولى رواياته عام ١٩٩٠م، بعنوان "الموت عشقاً"، وتنتمي إلى أدب السجون، وهي الرواية التي أدخلته في صدام عنيف مع السلطة حينذاك، لذا تم تهميشه، وإقصاؤه، وهو ما جعله يعزف عن الظهور في المنتديات العامة.

وأوضح شعبان يوسف، أنه بعد ذلك أصدر رواية "العاشق ينتظر" وتدور حول الفساد في وزارة الثقافة، وبعدها أصدر روايته الأخيرة "عصفور الكناريا"، مشيراً إلى أنه يراجع هذه الروايات الآن، تمهيداً للكتابة عنها، لأنه كان من المفترض الاحتفاء به في حياته، إلا أنه تم تجاهله تماماً "(٢).

قال عنه د. محمد حماسة عبداللطيف: "ولم يكن الدكتور علي أبو المكارم نحويّاً لغويّاً فحسب بل كان أيضا مفكراً اجتماعيّاً وأديباً مبدعاً، وقد كتب عدداً من الروايات الأدبية شهدت له بالتمكن الأدبي والاقتدار الإبداعي...

ولم يكن الراحل الكريم أستاذاً خاملاً كسولاً بل كان يثير حيثما حل الجدل والنقاش ويكره السكون والركون للدعة والاستقرار، ولذلك اختلفت فيه الآراء وتعددت وأحبه من أحب، وأبغضه من أبغض ولكن محبيه ومبغضيه جميعهم لم يختلفوا على ذكائه وألمعيته وعلمه. وكان رحمه الله يؤمن بأن الإنسان ليس إياه في كل مرحلة بل يتغير ويتبدل وكان يعبر عن هذا ضاحكا "إنك ياسيدي لا تنزل في النهر الواحد مرتين"، إن خسارة قسم النحو والصرف والعروض برحيله فادحة وخسارة دار العلوم بفقده لا تعوض"(٣).

(١) المصريون؛ صحيفة مصرية ألكرتونية؛ الأحد ٢٦/ ٧/ ٢٠١٥م.

(٢) اليوم السابع؛ السبت ٢٥/ ٧/ ٢٠١٥م.

(٣) المصريون؛ صحيفة مصرية ألكترونية؛ الأحد ٢٦/ ٧/ ٢٠١٥م.

وأشير في هذه النبذة أن الدكتور علي أبو المكارم له آراؤه الشخصية والسياسية الكثيرة، وله حدس عجيب، ونظر دقيق، في كثير القضايا المعاصرة، أحتفظ بما دار بيني وبينه من آراء سياسية وفكرية واجتماعية، وسأشير إلى أمر واحدٍ منها قد توقعه ووقع، ففي المؤتمر الذي عقد عن سيبويه أصر على أن أزوره في المنزل، وجلسنا جلسة طويلة تشعب بنا الحديث، في ميادين كثيرة، ومما قاله تلك الليلة: "مصر على صفيح ساخن من البارود، يوشك أن ينفجر، إلا أن يتداركنا الله برحمته، والشارع المصري مستفَزٌّ بصورة تدعو إلى القلق"، وكان يتوقع اضطرابات خطيرة قادمة في مصر.

كان هذا الكلام قبل الأحداث التي توالت على مصر، وكأنه ينظر إليها قبل وقوعها نظر عيان، رحمه الله وغفر له، وله آراء أخرى سمعتها منه شخصيّاً، ذات أبعاد مختلفة، وقع الشيء الكثير منها.

مكتبته:

عني ـ رحمه الله تعالى ـ بمكتبته، واستأجر لها داراً قريبة من منزله، حدثني عنها عدة مرات، وكان يأمل في أشياء كثيرة، وفي إحدى زياراتي له في بيته، أخذني إلى مقر مكتبته الجديدة، وكانت تحفة جميلة، عمل على أن تكون مقرّاً للقراءة والكتابة، والبعد عن الإزعاج، ويبقى البيت للأولاد والأحفاد، لم تكن المكتبة كبيرة، ولكنه جمع فيها الكتب التي يحتاجها في اللغة والأدب، والتفسير والحديث، والثقافة العامة، وفيها عدد كبير من الرسائل الجامعية التي أشرف عليها أو ناقشها، أو أهداها له بعض طلاب العلم، وخصَّص لها غرفة كاملة.

سألت ابنه أمجد عن مآلها بعد وفاته، فأخبرني أن والده د. علي ـ رحمه الله تعالى ـ قام بنقلها إلى العمارة التي يسكنونها في شقة خاصة قبل عامين تقريباً، ويعملون على فهرستها، ولم يتخذوا قراراً بشأنها حتى الآن.

أما مؤلفاته فقد نشر عدداً منها نشرة ثانية، ويعمل أولاده على إعادة نشرها كاملة عن طريق إحدى الدور لتكون في متناول الباحثين، حماية لها أيضاً من أيدي العابثين.

رحم الله ـ أبا أمجد ـ وأسكنه فسيح جناته، وجعله مع النبيين والصديقين والصالحين وحسن أولئك رفيقاً[1].

(١) أرسلت أصل هذا العمل إلى أبناء د. علي: أمجد وأخواته: د. عبير، د. أمل، د. نهى، وأخذت بتعليقاتهم التي رأوا إضافتها أو رأوا حذفها فيما يتعلق بوالديهما في الشأن الخاص بهم، ثم مراجعة بعض المعلومات لتوثيقها من واقع كتب والدهم ـ رحمه الله تعالى ـ، وكانوا في غاية النبل والتفضل وانشراح الصدر لأي أسئلة أعرف إجابتها وتنقصني جوانب منها.